
محمود جبر الربيعي
الاستعمار
والغزو الثقافي
Bibliotheca Alexandrina
0016042

الاستعمار والغزو الثقافي

محمد جبر الريفي

الاستعمار والغزو الثقافي

منشورات
المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الطبعة الأولى

1391 و. ر. 1982 هـ

حقوق الطبع
والاقتباس والترجمة
محفوظة للناشر

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية



الإهداء

إلى كلّ المناضلين في سبيل الحريّة
والتقدم والانعتاق النهائى ..

إلى كلّ الذين يعملون من أجل تركيز
ثقافةٍ ثوريّة أصيلة خالية من
كلّ مظاهر التضليل والتزييف
والإستلاب .

تقديم

هذا الكتاب في جملته هو محاولة متواضعة حاولت قدر جهدي أن أسلط من خلالها مزيداً من الضوء على ظاهرة من أخطر الظواهر التي يعانيها مجتمعنا العربي ومجتمعات بلدان العالم الثالث النامية ألا وهي ظاهرة الغزو الثقافي .

إن الشراسة التي واجه بها الإستعمار الغربي شعبنا العربي وشعوب العالم الثالث لا يمكن أن تُفهم إلا على ضوء كشف أبعاد هذه الظاهرة الخطيرة ودوافعها الأساسية وما تولِّده من اتجاهات انحرافية فى المجتمع سوف يؤدى ولا شك الجهل بها الى معاناة كبيرة يتعرض لها كل فرد منا عشرات المرات يومياً .

إن فهم هذه الظاهرة وتطورها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعرفة السبل الكفيلة بمواجهتها ولذلك كان همنا فى هذا الكتاب الى جانب تحليل أسباب هذه الظاهرة وتحديد دائرتها ورصد أبعادها ـ وضع الخطوط العريضة للحد من انتشارها والقضاء على وجودها . . .

فليس من المبالغة القول بأن تحررنا النهائي من كل مظاهر الإستلاب لن يكون إلا بتحرر ثقافتنا بشكل عام .

المؤلف

طرابلس الغرب

مايو ـ أيار ـ **1981** م

الفصل الأول

الاستعمار مصدر الغزو الثقافى

الاستعمار والثقافة العربية
الجذور الفكرية للغزو الثقافى
الصراع بين الحضارتين

الاستعمار والثقافة العربية

إذا كنا فى الحقيقة نقرر حتمية الوصول الى التقدم الصناعى باعتباره مطلباً ضرورياً للشعوب النامية حتى تتحول من وضع الإستسلام الكامل للرأسمالية العالمية الى وضع التقدم الصناعى والإجتماعى الذى يبعد عنها ضرورة الإستغلال والنهب فإن مثل هذا الوصول لا يمكن أن يتم بمعزل عن القضاء على كافة موروثات العهد الإستعمارى والعمل على إعادة تكوين مفاهيم الثقافة الجماهيرية النابعة من أصالة المجتمع عن طريق خلق الظروف الموضوعية الملائمة لإنتشارها وتركيزها . بحيث لا يقتصر الإهتمام فى مرحلة التحول الثورى على المشاكل السياسية ومشاكل التنمية الإقتصادية بل أيضاً يجب أن

ينصبّ الإهتمام على محاربة الثقافة الإستعمارية ووقف خطر الغزو الثقافى الذى يشكل فى حد ذاته إعاقة حقيقية لحركة التطور الصناعى والتقدم الإجتماعى .

والواقع أن الغزو الثقافى وما يمثله من تيارات واتجاهات يرتبط ارتباطاً كبيراً بالهجمة الإستعمارية الشرسة التى شنتها الدول الإستعمارية على وطننا العربى كما انه شديد الصلة فيما يجرى حالياً فى المجتمع العربى من تحولات اجتماعية وتغير فى بنية الطبقات . .

لقد أحدث الإستعمار الأوروبى شروخاً كبيرة فى بنية الثقافة العربية الإسلامية واستطاع بطرق ووسائل متعددة تجنيد قوى للتخريب الداخلى حتى لا يتيح للثقافة القومية النمو الى مرحلة هامة تتولد فيها ظروف الإرتقاء الشامل والتكامل وهكذا لا نستطيع فصل الهجمة الاستعمارية التى شهدتها المنطقة العربية والنضال العنيف من أجل دحرها عن الغزو الثقافى وشراسته

للمجتمع العربى وما تتطلبه مواجهة هذا الغزو من نضال حضارى مترابط ذاتياً وبصورة كلية مع حركة الجماهير العربية .

إن الإستعمار لم يؤثر فقط على النواحى السياسية والإقتصادية للوطن العربى بل انه خلق وسطاً تفاعلياً جديداً يتعامل معه لتبرير طبيعة وجوده العدواني الأمر الذي أدى الى تكريس انماط معينة من التفكير والعادات والقيم ، بالإضافة الى ظهور اتجاهات انحرافية خطيرة فى سلوك بعض الأفراد بحيث أصبحت جل الصعوبات التى يواجهها المجتمع العربى ومجتمعات العالم الثالث فى هذه المرحلة سن التطور الإقتصادى والإجتماعى والثقافى ناشئة فى الأصل عن واقع الصدام بين الثقافة القومية والثقافة الأجنبية التي جلبها الإستعمار لحماية ذاته عن طريق الثقافات الوطنية بالتواطؤ التام مع المثقفين البرجوازيين ، ومما يزيد الأمور خطورة استمرار غزو النمط الإستهلاكى الرأسمالى لبلدان العالم الثالث

والسعى المطلق من قبل الإمبريالية الدولية لعرقلة التحرر الإقتصادى .

الجذور الفكرية للغزو الثقافى

لنسأل الآن هل كان الغزو الثقافى مجرد منعطف فى تاريخ شعوب العالم الثالث والشعوب العربية بالطبع جزءاً منها ؟ أم كان صدام تاريخى بين حضارتين . . . ذلك أن المنعطف التاريخى غالباً ما تفرضه العوامل الإيجابية الناتجة عن النمو التاريخى الطبيعى فى حين ان الصدام التاريخى تولده عوامل متناقضة فى جوهرها تتطلب قبولاً أو رفضاً . . .

ومتى عرفنا حقاً أن الغزو الثقافى الذى ابتليت شعوبنا به هو فى الأصل عدوان ناتج عن صدام حقيقى نما وتكامل فى مجتمعات متخلفة عبر تاريخ طويل من الهيمنة والإنحطاط فإننا سوف ننجح فى محاربة هذا الغزو بعد عزله عن دوافعه الأساسية وعلاقاته الجدلية . وبذلك

نبدأ فى وعى خطورته وهى الخطوة الأولى فى حل مشاكلنا الحضارية حلاً جذرياً . . . قبل كل شيء علينا أن نعرف أن هناك من الخصائص التكوينية التى تميز مجتمعنا العربى الإسلامى عن المجتمع الغربى وهي خصائص هامة جغرافية وبشرية وحضارية ولولا هذه الخصائص لكان من المستطاع اعتبار الغزو الثقافى نهضة اجتماعية وثقافية حدثت عن طريق مد الجسور والإحتكاك بين الشرق والغرب . . . . ولكن الذى حدث هو إن هذه الخصائص تفاعلت عدائياً مع حركة زحف الإستعمار الأوروبى ثم انتشاره أخيراً فى عصر الإمبريالية . . .

والواقع فإن الصدامات العسكرية والغزوات الإستعمارية كانت هي المصدر الأساسي الذي من خلاله عبرت مفاهيم الحضارة الغربية الى بلدان الشرق القديم والذى يقع معظمه الآن فى ذلك الجزء الذى نسميه جغرافياً وسياسياً بالعالم الثالث والوطن العربى بالخصوص يشكل رقعة كبيرة منه . . .

لقد واجهت هذه البلدان حضارة الغرب في القرون الأخيرة وكانت المواجهة في الحقيقة بين نموذجين من الحضارة وبين مجتمعين اختلفا في تكوينهما ولعل الإتفاق في كل منهما كان في المظهر الخارجي ، ذلك أن سمة الإنفصال في المجتمع الغربي كانت واضحة من خلال تكوينه المرتكز على الحضارة الرومانية واليونانية ذات الطابع الوثني الحسي والتي لم تستطع المسيحية الغربية كديانة رسمية للأوروبيين أن تغيره تغييراً جذرياً بسبب دعوى العلمانية . . . وفيما يختص بالمجتمعات الشرقية ومنها على وجه الخصوص المجتمع الإسلامي فإن الإنفصام كان سمة طارئة نجمت عن عجز المسلمين وعدم قدرتهم على تحمل فاعلية الإسلام، هذه الفاعلية التي لا يستطيع القيام بها إلا المجتمع القوي النشط . . . وكان عجز المسلمين وضعفهم وانهيارهم الحضاري خاصة بعد العصور الوسطى سبباً مباشراً في رقي المجتمعات الغربية وتقدمها حيث استعانت بعلوم

المسلمين وفنونهم ومهاراتهم وتصورهم الفلسفى للكون وللحياة الإنسانية فى استعادة أصالة الشخصية الأوروبية وتطوير قدراتها الإقتصادية والإجتماعية .

الصراع بين الحضارتين

هكذا فإن الغزو الثقافى فى الواقع هو صراع فكرى فى الأساس قائم بين حضارتين مختلفتين فى المفاهيم والغايات وبين نمطين من التفكير والسلوك وصل بينهما الصراع الإستراتيجى العام فى أغلب مراحل التاريخ فى ماضى الإنسانية وحاضرها وقد يستمر أيضاً فى مستقبلها . . .

إنه صراع قديم ومتجدد ، ذلك أن العناصر المتناقضة فى كلتا الحضارتين الشرقية ونموذجها المثالى الحضارة الإسلامية والغربية ونموذجها بالمقابل الحضارة الأوروبية البرجوازية هى التى فجرت الصراع ، هذا الصراع المستمر فى جوهره ، المتغير فى بعض أعراضه وتفاصيله بسبب ملائمة ظروف الزمان والمكان .

لقد خضعت الشعوب العربية والإسلامية وسائر بلدان العالم الثالث عموماً لسطوة الإستعمار الأوروبى المحكوم بفلسفة « الفكر الغربى الذى يقوم أساساً على الوثنية الاغريقية + المسيحية »(1) والمدعوم بطموحات البرجوازية الصاعدة فكان الإستلاب على أشده حيث انهار التوازن بين الحضارتين وكان الجديد الذى أتت به الحضارة الغربية على مدافع الإنجليز والفرنسيين والايطاليين والإسبان سبباً فى هذا الخلل الخطير الذى يعيش به وطننا العربى وبلدان العالم الثالث عموماً حيث الإستلاب الكامل فى التعليم والمؤسسات والعلاقات والقوانين ولا علاج لكل ذلك إلا بالتحرر الكامل اقتصادياً وسياسياً وثقافياً والخروج النهائى من دائرة الحضارة الغربية البرجوازية ، حضارة الإستهلاك ، حيث تصاغ الشخصية القومية صياغة جديدة وأصيلة

---

(1) أنور الجندى معالم الفكر العربى المعاصر ص : 36

ويعاد الالتصاق بالواقع وهو الحل الأمثل لعلاج أزمة الإنسان في مجتمع المدينة المشوهة التى هى قمة الإغتراب والتأزم الحضارى . . .

إن عهوداً طويلة من التخلف والإستعمار قد ألمت بالوطن العربى والعالم الإسلامى وكانت السبب الرئيسى فى تأخره وانهياره ومن الحكمة أن نعترف بذلك حيث يجب أن يعرف المواطن العربى الواقع السياسى والإقتصادى والثقافى والإجتماعى الذى يعيشه اليوم والصورة المشوهة التي رسمتها الصهيونية العالمية ودوائر الإستعمار الثقافية وبعض المستشرقين عن صورة العربى والتى امتدت لتشمل أيضاً الحضارة العربية الإسلامية حيث اعتبروها حضارة متخلفة غير مكتملة الأسس وقد انتهت بالإندحار . . .

هكذا نجد أنفسنا أمام تحدى حضارى خطير والسؤال الذى يجب أن نسأله : كيف يمكن لنا ونحن ما زلنا نعيش تحت سطوة الحضارة الغربية بكل مظاهرها البراقة ان

نواجه هذا التحدى ؟

إن الجواب على ذلك مرهون بمعرفة طبيعة هذه المرحلة بالإضافة الى معرفة خصائص حضارتنا العربية الإسلامية وما هي ابداعاتها وعطاؤها فى مجال الفكر والدين والفن واللغة . . . الخ . . . . علينا إذن أن نرى فى حضارتنا نموذجاً متكاملاً قادراً على التحدى والتواصل ومقاومة الإستلاب . . . . إن معرفة ما هو الإسلام الحقيقى ومن هم المفكرون العرب والمسلمون وما هي ابداعاتهم وعطاؤهم وما هى اللغة العربية التى صمدت أمام كل التحديات . . . إن معرفة كل ذلك سوف يدفعنا حتماً الى بعث حضارتنا من جديد والتمسك بها لوضع إستراتيجية للمجتمع تحكم تطوره نحو التقدم وتلك مسؤولية كبرى علينا جميعاً أن نقوم بها لنتخلص من التأزم الحضارى والنفسى الذى نعيشه .

الفصل الثانى

دائرة الغزو الثقافى

الاغتراب الحضارى
تأزم الشخصية القومية
اللغة ومعركتنا ضد الاستعمار الثقافى
الهجوم على التراث

الاغتراب الحضارى

إن تحديد دائرة الغزو الثقافى هو من الأمور الهامة ذلك أن استقرار مظاهر الإستلاب الثقافى يدل دلالة واضحة على أن الثقافة الإستعمارية قد استطاعت أن تمتص تاريخياً فئات كثيرة من البنى الإجتماعية التي يؤهلها وضعها الطبقى للإستمرار فى عملية التبعية وكأنما افتقدت تماماً القدرة على الإتصال بمنابع جذورها الأصلية ، وهذا يظهر بوضوح عند شرائح كثيرة من الطبقات المتوسطة والبرجوازية الصغيرة ، فقد استطاع بريق الثقافة الإستعمارية أن يعمم بوضوح مظاهر الإغتراب الحضارى ولعل أغرب ظاهرة على ذلك هو ما نراه اليوم من تأزم الشخصية القومية عن طريق تزييف

اتجاهاتها وصرف قناعاتهـا وطمس آمالهـا الإنسـانية من خلال توفير حاجاتها الهامشية كأدوات الرفاهية وغيرها من سلـع الحضـارة الإستهـلاكية التـي تزيد من استغــلال الشعوب النامية بحيث تصبح هذه الشعوب لا تعى صور الظلم والإستغلال ذلك أن الثورة الإجتماعية التي تخشاها الإمبريالية تحاول امتصاصها داخل بلدان العالم الثالث بتوفـير مزيد من الأدوات الإستهـلاكية مستغلـة بذلك حاجة الشعوب المحرومة طويلاً الى التمتع بكل ما أفرزه التقدم الصناعى والتقنى فى الـدول الكبـرى ، وبـذلك تستمر هذه البلدان واقعة تحـت سطـوة الآلـة الإنتـاجية للرأسمالية العالمية .

إن الإستمرار فى هذه العلاقة التبعية سوف يؤدى الى اخضاع الإنسان فى البلدان النامية الى مزيد من الإغتراب الحضارى بشتـى أشكالـه فهـو وإن استطـاع أن يشبـع حاجاتــه المادية من خلال التبعية المطلقــة للســوق الرأسمالية ، إلا أنـه لا يستـطيع مقابـل ذلك أن يحقـق

سيادته وحريته ، وذلك ان هذه السيادة والحرية قد أبدلها بلذة البيع والشراء والتمتع بملذات أدوات الرفاهية وعلى مستوى أعمق فإن الإمبريالية تعمل على استثمار هذه التبعية الإقتصادية وهنا تبدو خطورة الغزو الثقافى الذى يتجلى بوضوح فى كثير من المؤسسات التعليمية الكبرى كالجامعات والمعاهد باعتبارها مؤسسات غريبة فى مناهجها وفلسفاتها عن المجتمعات التى تقوم فيها . . . . .

« الجامعة وقضية المشاركة »

إن التعليم الجامعى بصورته الحالية لا يحقق المشاركة الإيجابية فى تنمية المجتمع وخروجه من مرحلة التخلف ذلك لأنه يقنن الإنسان ويمرره فى حلقات متتابعة ويقتل الإبداع فيه فضلاً عن انه يقوى فى الواقع الموضوعى القوى التى تلعب دوراً كبيراً فى الحاق المجتمع النامى بعجلة الرأسمالية وذلك حين يخلق اطارات بيروقراطية تتجاوز طموحاتها طموحات المرحلة الذى يعيشها

المجتمع النامى ولا بد من تحطيم هذا النمط من التعليم الذى يهـدف فى النهـاية الى خلـق انسـان ذليل مهيمـن عليه . . .

إن الجامعة بصورتها الحالية هي بمثابة صورة مصغرة للإستعمار الثقـافى فهـى إذا كانـت صالحـة للمجتمـع البرجوازى باعتبارها تركيباً ملائماً لطبيعته فضلاً عن انها من إحدى افرازاته فهى ليست كذلك فى المجتمع النامى ذلك أن الإستعمار لم يخلـق هذا النمـوذج فى البلـدان الواقعة تحت نفوذه السياسى والإقتصادى والعسكرى إلا لكى يخلق مجموعة من الإطارات يستطيع أن يتعامل معها بفضل ما اكتسبته من ثقافة برجوازية بعيدة عن الإتصال بأعماق الشخصية القومية والتـاريخية . ولـذلك كان من الطبيعى أن تثار هذه القضية فى البلدان النامية وخاصة فى الجماهيرية حيث يتجه البحث الى نموذج جديد يتجاوب مع المطالب الحقيقية للإنسان فيحل الإبداع محل التلقين والمشاركة بدل التبعية ويصبح التعليم فى مستوى التحدى

التاريخى . .

إن الأفكار المستوردة التى تعمق الفكر البرجوازى بالإضافة الى مجلات الجنس والأشرطة الرخيصة وأشرطة الموسيقى والأغانى الغربية الصاخبة وتقليعات الأزياء . . . . . كل هذه الأشياء تعتبر من مظاهر الإغتراب الحضارى والغزو الثقافى وليس هذا فحسب بل استطاعت الحضارة البرجوازية ان تخلق أشكالاً متنوعة لفن العمران يرى فيها الإنسان جماليات الفن البرجوازى البعيد عن الأصالة الشرقية . . .

أى أن الغزو الثقافى لم يقتصر على مجال واحد من مجالات الحياة بل استطاع أن يخضع كافة الإتجاهات الحديثة فى الفكر والثقافة والسلوك واللباس والعمران لقانون الإستغلال فى الحضارة البرجوازية . . .

وهنا نجد أنفسنا مضطرين الى طرح قضية الحاجة الى التحرر الثقافى الكامل مع ضرورة التخلص من التخلف

والتبعية الإستعمارية بالإضافة الى تدعيم المقولة القائلة :
بأن لا حرية لشعب يأكل من وراء البحر .

فالتحرر السياسى هو نصف المسافة بين التحرر الكامل والتبعية فمع بقاء الإقتصاد كقوة متخلفة تابعة للرأسمالية العالمية يتخذ الغزو الثقافى أبعاده الخطيرة ويبدو عند الكثيرين وكأنه مرادف للتقدم الثقافى والرقى الحضارى . وعند هذه النقطة تلتبس الأمور وتتميع القضية ويصبح كل ما هو أوربى وأمريكى نموذجاً راقياً ومثالاً للتطور والتقدم ولا نستطيع الخروج من هذا المأزق الإجتماعى والحضارى إلا بالطرح الموضوعى القائم على فهم أسس الإختلاف الجذرى بين قضية التقدم وقضية التخلف حتى لا يتعمق الزيف وتصبح جاذبية الحضارة البرجوازية مصدراً كبيراً للإستلاب الثقافى .

تأزم الشخصية القومية

إن الإستعمار الغربى أحدث تغييرات شاملة فى حياة

البلدان التى استعمرها ويتجلى هذا على مستوى أعمق فى أعنف صور الإغتراب الحضارى حيث تتعرض الشخصية القومية لمحاولات مدروسة من التشويه والطمس والمعتمدة على مناهج علمية ونفسية الأمر الذى يجعل من هذه الشخصية نسخة مشوهة للشخصية الأوروبية والغربية بصورة عامة . . .

لقد تحكمت فى حياة الشخصية القومية القوانين الغربية وخاصة القانون الرومانى القائم على امتزاج الوثنية بالمسيحية الغربية كما أصبحت قيم الحضارة الغربية ومفاهيمها توجه حياة الشعوب المتخلفة الإجتماعية والإقتصادية والثقافية حيث تخلى الكثير من تلك الشعوب عن لغته القومية بعد أن أصبحت اللغة الإستعمارية لغة الثقافة والفن والعلم كما هو الحال فى بعض بلدان القارة الافريقية وبلدان أمريكا اللاتينية . .

لقد أوجد الاستعمار جيلاً كاملاً يجتر الأفكار والثقافات النابعة من مجتمع الغرب البرجوازى الذى

يختلف جذرياً فى تكوينه الحضارى عن مجتمعات بلدان العالم الثالث النامية . . .

لقد استطاع هذا الإستعمار أن يكسب نجاحات كبيرة وهامة وذلك حين الحق هذه البلدان عملياً فى دائرة نفوذه الحضارى مستغلاً الى أبعد الحدود حاجة تلك البلدان الى التقدم الصناعى والتحديث والنتيجة كانت مزيداً من الإغتراب الحضارى وتأزم الشخصية القومية وهو هدف يعمل من أجله المستعمرون ويسعون إليه بكل وسائلهم القادرة على التأثير على العقول والقلوب وذلك منذ أن خرجت هذه البلدان من عصر الإستعمار التقليدى الى عصر الإستعمار الجديد .

إن قوانين المجتمع الإستهلاكى تلعب الآن دوراً خطيراً فى تأزم الشخصية القومية حيث تعمل هذه القوانين على تزييف الإتجاهات الأصيلة لهذه الشخصية بالإضافة الى أنها تغير الى حد بعيد خصائص المجتمع النامى الذى يحمل فى أعماقه لواء الثورة والتغيير وصولاً

الى الإستقلال الكامل والتحرر الإقتصادى والحقيقة أن أوضح ظاهرة يمر بها العالم الثالث الآن هو اعتماده كلياً على تكنولوجيا الغرب وعلى تطور حضارته الإستهلاكية ولعل أهم نتيجة لذلك هو إجهاض التطور الإجتماعى الجارى لصالح الطبقات الشعبية وربط شعوب العالم الثالث اقتصادياً بعجلة الرأسمالية الغربية وأسواقها الإحتكارية . . .

« فلقد استطاعت حيوية الحضارة الإستهلاكية أن تعمم مظاهر الغضبية والتمرد حتى على الطبقات التى هى هدف للنزعات الغضبية ولكنها عممتها بطريقة أخرى إذ حولتها الى مصانع للآلات السمعية البصرية ، والألبسة الجاهزة والألعاب والكتب والمجلات يستهلكها الجميع الغاضبون ومن هم موضوع الغضب وسببه وهدفه »(2) .

وهذا ما يحدث حقيقة الآن فى بعض بلدان العالم

---

(2) مطاع صفدى التجربة الناصرية والنظرية الثالثة ص 409

الثالث وخاصة بلدان النفط فى دول الخليج العربى حيث أعطت الحضارة الإستهلاكية الغربية للشباب نمطية كاملة متنوعة من العادات والمظاهر وأشكال العمران والتزيين وحولت ظاهرة الرفض التى يمكن أن تقوى وتستثمر لصالح تحرر المنطقة من الإحتكارات الى موجة استهلاكية هائلة تلهث وراء السيارات الأمريكية الفارهة والأشرطة الجنسية وأجهزة « الفيديو » وغيرها من نمطية الحضارة الإستهلاكية التى تقوم عليها ثقافة الغرب اليوم .

على ضوء ما تقدم نلاحظ أن ما حدث للشخصية القومية من تأزم بفضل التبعية الإستعمارية بكل أشكالها هو مرآة واضحة لمعاناة الإغتراب بشتى صوره السياسى والإقتصادى والثقافى وبالتالى يصبح النضال من أجل التحرر الكامل هو الطريق الوحيد للخروج من هذه المأساة الإنسانية التي فُرضت على شعوب العالم الثالث وشعوبنا العربية فى مقدمتها .

اللغة ومعركتنا ضد الاستعمار الثقافى

ليس من المبالغة القول بأن النضال من أجل تحرر البلدان النامية من المشاكل الحادة التى تعانيها هو نضال شامل يوضح فى حقيقة الأمر مشكلة التناقض بين مصالح الإستعمار الجديد واحتكاراته الإمبريالية وبين حركة التنمية العامة التى تسعى اليها ثورات الشعوب المتخلفة ، ذلك أن بعض البلدان التى استطاعت عبر ثوراتها السياسية أن تحقق استقلالها الوطنى وأن تطوره الى استقلال اقتصادى لا يخدم مصالح الإستثمار الرأسمالى هى قادرة فى نفس الوقت على مقاومة الإستلاب الثقافى السائد فى أجزاء كبيرة من بلدان العالم .

لقد أثبتت ثورات العالم الثالث أنها حلقات متتابعة للقضاء على المعاناة بشتى صورها الإغتراب السياسى الذى يتطلب الكفاح ضد المستعمر الأجنبى للوصول الى الإستقلال السياسى الى معاناة الإغتراب الإقتصادى

الذى يستلزم هو الآخر النضال وصولاً الى التخلص من التبعية للسوق الرأسمالية ، الى الإغتراب الثقافى الـذى يشكل مع الاغتراب الحضارى المرحلة الثالثة من مراحل الإغتـراب الـذى كان بسبـب الإستغـلال الإسـتعمارى لقوى الشعوب النامية . . .

وليس من شك فى أن الاغتـراب الثقـافى سيكون له الدور الحاسم فى هذه المرحلـة فهـو الـذى يعتمـد عليه الإستعمار الجديد فى تجنيد قواه داخل المجتمعات النامية لحـرف اتجاهـات الثـورة لدى حركات التحـرر الوطنى . . . وقد أثبتت الأحـداث السياسية فى افـريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والثورات المضادة التـى حدثـت هناك ضد الثورات الوطنية التقدمية ـ انها كانت بسبـب تأثير الثقافة الإستعمارية المحـركة لبعض المثقفـين ذوى الإتجاهات الغربية . . .

إن أوضح تأثير للثقافة الإستعمارية فى البلدان النامية هو ما نراه اليوم من ضعف وتخلف كثـير من اللغـات

القومية التاريخية . . .

لقد عمل الإستعمار على إهمالها والحط من شأنها وكان مستعداً دائماً للتعامل معها بحسب مدى موافقتها مع مصالحه وأهدافه الإستعمارية ، وسواء أكانت السياسة المتبعة فى ذلك تستهدف خلق فئة من الموظفين يقومون على خدمته ، الأمر الذى يستلزم الإلمام بأصول القراءة والكتابة أم تستهدف شيئاً آخر لا يبتعد بطبيعة الحال عن هذا المجال كثيراً ، فإن النتائج لا يختلف عليها أحد فى انها كانت سبباً فى الركود الذى أصاب بنية هذه اللغات حيث دخل فيها كثير من المفردات الأجنبية التى ما كانت لتستقر بهذه الصورة لولا ذلك الضعف والتخلف وذلك التأثر السريع والسهل باللغة الإستعمارية .

إن الأثر الأعظم الذى تركه الإستعمار الأوربى فى البلدان النامية خاصة فيما يتعلق باللغة القومية هو ما نراه اليوم من ازدواجية لغوية تتنازعان التعبير فى كافة مجالات

الحياة ، اللغة القومية التى حافظت على بنائها القديم بحكم ارتباطها بالثقافة القومية وبين اللغة الإستعمارية التى سادت أثناء الإحتلال الأجنبى باعتبارها لغة الكتابة الرسمية التى كانت سائدة فى الوثائق الحكومية ، وقد سببت هذه الإزدواجية مشكلة لغوية حادة . . . فعلى سبيل المثال :

« اللغة الرسمية واللغة القومية »

اللغة الرسمية فى الباكستان والهند هى اللغة الإنجليزية على الرغم من وجود بعض اللغات القومية وليس هناك فى الدولتين من لغة قومية سائدة تستطيع أن تحل محل اللغة الإستعمارية وهناك من ينادى الآن بجعل اللغة العربية فى الباكستان هى اللغة الرسمية باعتبارها لغة القرآن الكريم . . .

نفس المشكلة تجدها فى بعض البلدان الأسيوية والافريقية كأفغانستان وأوغنده والسنغال .

لقد فرض الإستعمار لغته كما فرض وجوده على سكان

مستعمراته وأول ما يمكن أن نلاحظه فى هذا الصدد أن انتشار اللغات الإستعمارية خاصة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية قد بدأ مع حركة الإستعمار الأوربى وأخذ حدوده فوق ساحات الصراع حول المستعمرات . . . فليس هناك ما يؤكد على أن هذه اللغات أسهل من غيرها من حيث رسم الحروف وحركات الإعراب . . . ثم ان هذه اللغات انحدرت فى الأصل من اللغة اللاتينية التى حوت مجموع التراث اليونانى والرومانى فهى ليست إذن أخصب من غيرها فى مجال التراث « فبينما احتفظت اللغات القومية لكثير من البلدان النامية بخصائصها واستمرت متفاعلة مع مخزونها الأدبى شعراً ونثراً فقدت اللغات الأوربية كثيراً من هذا المخزون حيث قامت « على أنقاض لغة متحللة لم تعد تشكل الآن فى الغرب أكثر من لغة التراتيل والصلوات والأدعية »[3] . فاللغة

(3) د . عمر فروخ اللغة بين العامية والفصحى ص : 26

الفرنسية التى تعتمدها كثير من البلدان الأفريقية كلغة رسمية لم تكن موجودة « فى القرن التاسع للميلاد الذى يوافق القرن الثالث الهجرى وكانت فرنسا فى ذلك الوقت تزخر بلهجات متعددة لا تشكل بحد ذاتها لغة قومية كالبشكنسية والجرمانية »(4) .

لعلنا هنا من المفيد أن نتعرض لبعض الحملات التى استهدفت اللغة العربية باعتبارها أهم عامل لتحقيق وحدة الأمة العربية فالذى حدث أن الإستعمار اتخذ عدة أساليب للقضاء على وحدة اللغة فقد عمل جاهداً على الحط من شأن اللغة العربية فى مجال الفكر والعلم حيث أصبحت اللغة الإستعمارية هى لغة العلم والإدارة بالإضافة الى تشجيعه للهجات المحلية وليس سراً أن الوطن العربى زاخر بهذه اللهجات مثل الكردية فى سوريا والعراق والبربرية فى شمال افريقيا والنوبية فى

---

(4) نفس المرجع ص : 27

مصر والسودان ومما لا شك فيه أن تشجيع هذه اللهجات المحلية سوف يؤدى فى النهاية الى تكريسها كلغة الأمر الذى يؤدى الى القضاء على وحدة اللغة وهى العامل الأساسى فى توحيد الأمة ووحدة مشاعرها . . . .

إن الإستعمار ودوائره الثقافية لم يكتف بهذه الأساليب بل روج الى الدعوة باستعمال الحروف اللاتينية كبديل عن الحروف العربية السامية فى كتابة اللغة وقد تحمس بعض الكتاب والأدباء العرب ذوى النزعة الغربية لهذه الدعوة الخطيرة بل وصل الأمر بسعيد عقل فى لبنان الى الكتابة بالحروف اللاتينية بالإضافة الى تحمسه الشديد للهجته اللبنانية التى اعتبرها صالحة لأن تصبح لغة رسمية لبلاد الشام !

هكذا استطاع الإستعمار الثقافى أن يخلق مجموعة من الكتاب والأدباء المتشيعين لثقافته العاملين على تحقيق مآربه ومخططاته التى تستهدف فى النهاية طمس الوجود القومى للأمة العربية ومنع تطورها ونموها الإقتصادى

والثقافى حيث جعل من المشكلة اللغوية مشكلة خطيرة لها أبعادها الهامة ليس فى الوطن العربى فحسب بل فى كافة بلدان العالم الثالث النامية . . .

« محاربة اللغة القومية لماذا ؟ »

لقد أراد الإستعمار من خلال محاربته للغات الشعوب التى وقعت تحت سيطرته تحطيم وحدة هذه الشعوب . . . فليست اللغة مجرد وسيلة للتخاطب والتفاهم بل هى عنصر من عناصر توحيد الجماعات البشرية . . . فاللغة هى التى تصنع وحدة الشعور والوجدان ، كما تصنع وحدة الفكر ولا ريب أن هذين العاملين هما أقوى العوامل التى تربط أبناء الأمة الواحدة . . . لقد أدرك الإستعمار هذه الحقيقة فعمل بكل وسائله القمعية على تحطيم لغات الشعوب المضطهدة . . .

« الأمية خليفة الإستعمار »

ولم يكن من الصعب عليه بطبيعة الحال القيام بمثل

هذا العمل ولا يمكننا أن نفهم الدور الذى لعبه الإستعمار فى مواجهة اللغة القومية إلا بعد أن نقف على حقيقة مشكلة الأمية فى البلدان النامية حيث تحتاج هذه المشكلة الى تضافر جهود كافة أجهزة الدولة وتعاون كافة الهيئات الدولية حتى يتم القضاء على أُمية الذين حرموا من القراءة والكتابة بل ان من الأمور الخطيرة التى تزيد من حدة هذه المشكلة أن مشكلة الأُمية ذاتها تعطل خطط التنمية وتبدو هذه الظاهرة فى كثير من البلدان التى تعانى نقصاً من العمال الفنيين المهرة ، ذلك أن عملية التحول من التخلف الى التقدم الصناعى يجب أن ترتبط بقضية التعليم والثقافة حتى يتم توفير المهارات المطلوبة من أجل تنفيذ مراحل التنمية . . .

إن الاستقلال السياسي الذي حصلت عليه بعض البلدان النامية لا يعنى انه سيصل بشعوب تلك البلدان الى التحرر الكامل من آثار الإستعمار ذلك أن هذه البلدان ستجد نفسها إذا لم تتعرض لقضية الثقافة وعلى

رأسها اللغة فى مواجهة ثقافة استعمارية متراكمة تدفع بها فى طريق التبعية الكاملة بشتى صورها . . . إن كثيراً من البلدان النامية قد وعت فى الحقيقة ، خطورة هذه المشكلة والتى تتمثل بسيادة اللغة الأجنبية التى كانت فى الأصل لغة الإستعمار فأخذت تهتم بلغاتها القومية اهتماماً كبيراً . . .

« دور الجماهيرية »

لا يفوتنا فى هذا المجال التنويه بدور الجماهيرية الريادى فيما يتعلق باللغة العربية حيث عملت جاهدة على الرفع من شأنها واظهار مكانتها فى المحافل الدولية وفى العالم أجمع . . .

وهكذا تأخذ قضية التحرر من النفوذ الفكرى والثقافى الإستعمارى أبعادها الطبيعية لذلك فإن الإهتمام باللغة القومية والرفع من مستواها وضمان سيادتها فى جميع الميادين هو الذى سيعزز الإتجاه الإيجابى الذى تسير بموجبه قضية الثقافة والفكر فى البلدان النامية . . .

فليس هناك في الواقع أي معنى للإستقلال السياسي ولغة الإستعمار القديم تصول وتجول في كافة مجالات الحياة . . . لكن السؤال الذي ينبغي أن نطلب الإجابة عليه هو :

هل بمقدور بلدان العالم الثالث النامية أن تجعل من قضية اللغة قضية حياة أو موت ؟

علماً بأننا جميعاً متفقون على أهمية اللغة في عالم اليوم باعتبارها أهم عوامل بقاء الأمة واستمرار وحدتها .

الهجوم على التراث

ليس هناك مصدر من مصادر الثقافة العربية الإسلامية واجهه ذلك الهجوم العنيف والحملة الضارية أكثر ما واجه التراث العربي الإسلامي باعتبار أن هذا التراث يشكل أحد منابع الفكر العربي المعاصر ذلك « أن جذور هذا الفكر ما تزال حية ممتدة متطورة في مجال الدين واللغة والتاريخ والثقافة والتشريع والأدب »(5) . ولم

(5) أنور الجندي معالم الفكر العربي المعاصر : 174

ينقطع تفاعلها كما حدث بالنسبة للتراث الإغريقى الذى انفصل عن الفكر الغربى بعد تحلل اللغة اللاتينية الى لغات عديدة . . .

فالمعروف أن اللغة العربية التى حوت تراثنا بالإضافة الى مقومات فكرنا ما زالت حية قادرة على استيعاب كافة المضامين الحضارية الحديثة وهى نفس اللغة التى سطر بها أدباؤنا وكتابنا الأقدمون أعمالهم الشعرية والنثرية فى الوقت الذى انقطع فيه الفكر الغربى عن مصادره الأصلية المتمثلة أساساً فى الوثنية الإغريقية والنظرة الرومانية فكانت بذلك حركة الإحياء فى أوربا والتى أطلق عليها لفظ « الرينسانس » هى بمثابة محاولة للعودة الى الجذور الحقيقية التى قامت عليها الحضارة الغربية خاصة فيما يتصل بالتراث .

وإذا كان هذا قد حدث فعلاً بالنسبة للتراث الغربى فإن الأمر يختلف فيما يتعلق بالتراث العربى الإسلامى فالذى حدث فى هذا المجال لا يعدو أكثر من ظهور بعض

حركات الإجحاد لهـذا التراث ومحاولة النيل والتشكيك فيه وتشويه جوهره وهى حركات شعوبية ارتبطت أخيراً بالنفوذ الغربـى وبحـركة الإستشراق والتغـريب وهـذه الأخيرة تمثل المرحلة الثالثة للغزو الثقافى .

فالحملة على التراث والتشكيك فيه وتشـويه جوهـره والدعوة الى العامية ، كلها حلقات من مخطط الشعـوبية التى تحمل روح الحقد والتعصب ومن هنا يمكن أن نقول أن الفكر العربى المعاصر يخوض معركته الحضـارية من خلال مدى قدرته على الإتصال بمنابع جذوره ومصـادره الأصلية ومنها على وجه الخصوص التراث الذى يمثل فى جوهره عظمة امتنا وتاريخها المجيد وعطائهـا الحضـارى المستمـر . فقـد كانـت حمـلات التغـريب والإستشراق تستهدف بالدرجة الأولى حجب هذه الأمة عن ماضيهـا ولما كانت الأمة العربية والأمة الإسـلامية بصـورة عامـة خاضعة لنفوذ الإستعمار الغربى فقد عمل هذا الإستعمار بكل جهوده على قتل كل المقومات والروابـط الأسـاسية

التـى بواسطتهـا تستـطيع الأمـة مناهضتـه واجبـاره على التقهقر وقد امتدت هذه الحملة الى التراث لما يحويه من كافة المكونات الأساسية التى تقوم عليها دعائم القومية أو الأمة كالدين واللغة والتاريخ .

فقد حدث فى مجال التأليف عن التـراث ان ظهـرت دراسات كثيرة لبعض المفكرين العرب والمسلمين متأثرة بنظرة بعض المستشرقين الذين أولوا الحـركات المنحرفـة داخل التاريخ الإسلامى وداخل فكره والقوا عليها بعض الأضواء وجعلوها ثغرة كبيرة يهاجمون منها مقومات الفكر العربى الإسلامى ومقومات الحضارة العربية »(6) .

لقـد ارتبطـت حركة الإسـتشراق بحـركة الإسـتعمار الغربى واستطاعت هذه الحركة أن تضع يدها على الكثير من المخطوطـات والمؤلفـات النـادرة وبعـد الـدرس والتمحيص أخذت تروج لجوانب هامشية غير مضيئة فى

---

(6) نفس المرجع السابق ص : 175

التاريخ العربى والإسلامى ولم يلبث أن سار فى فلك هذه الحركة كثير من التلاميذ والأتباع الذين تأثروا بآرائها البعيدة عن الموضوعية والتى لا تنم إلا عن حقد وتعصب أعمى وبعد عن نزاهة البحث العلمى .

أما فى مجال الدين فقد حاول الفكر الغربى أن يطبق مفاهيمه فى الدين على الإسلام وأن يحكم على الدين الإسلامى كما حكم على المسيحية الغربية حتى يجرد الأمة العربية والإسلامية من شخصيتها ومن مقوماتها الأصلية .

ولم ينج الأدب من هذه الحملة الضارية ، ولما كانت اللغة هى أداة التعبير فقد انصب الهجوم على اللغة العربية باعتبار أنها أكثر لغات العالم ارتباطاً بتاريخها وهكذا بدأت الحملة على اللغة العربية تأخذ طابعاً خطيراً خاصة فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ النضال العربى فليس هناك أخطر من الدعوة الى العامية أو الكتابة بالحروف اللاتينية وقد حدث هذا الشيء الأخير فى تركيا « حيث

أدى اختيار كمال اتاتورك طريق الحضارة الأوربية الى تبديل حروف اللغة العربية بحروف لاتينية والى استبدال الأزياء الشرقية بالأزياء الغربية »(7) .

والغاية من هذه الدعوات لا تخفى على أحد وهى تحطيم مقومات القومية العربية المتمثلة فى وحدة اللغة والعمل على خلق أدب اقليمى ينسجم مع الفكر الرجعى الذى يدعو الى العزلة والتجزئة . . .

وفى نفس الوقت لم يسلم التاريخ هو الآخر من حملات بعض المستشرقين واتباعهم فحاولوا بكل الوسائل طعنه والتهوين من أحداثه .

« فطه حسين مثلاً يحاول أن يصور العصر الثانى والثالث للهجرة على انه عصر شك ومجون »(8) وهو أيضاً لم يتوان فى الدعوة الى حضارة الغرب والدعاية لفرنسا

---

(7) د . حسن صعب علم السياسة ص : 396

(8) أنور الجندى معالم الفكر العربى المعاصر ص : 191

ويرى أن مصر في حضارتهـا الفرعـونية هى جزء من حضارة المتوسط .

نفس الدعوة تنطلـق الآن فى لبنـان بعـد أن يربطهـا الموارنة الإنعزاليون بالحضارة الفينيقية . . .

أما توفيق الحكيم فهـو يبحـث الآن عن طريق لمصر خارج نطاق العروبة فى حين يرفض لويس عوض جهراً إنتماء مصر العربى !

هـكذا كانـت تستهـدف كل من حركة التغـريب والإستشراق القضاء على المكونات الأساسية لوحدة الفكر العربى ولا شك أن العـودة الى التـراث هى من أخطـر الأعمال التى تواجه هذه القوى لأنها تعـود بالمثقفـين الى جذورهم الحقيقية بالإضافة إلى أنها قضية هامة من قضايا الشعوب التى تناضل لإثبات هويتها القـومية وهـى من ناحية أخرى ترتبط ارتباطاً عضوياً بالعمل المبدع والفكر الخلاق فالتواصل والتجديد هما عمليتان مرتبطتان بالبناء

الثقافى لمجموع الأمة ، الأمر الذى يستدعى النظر باهتمام أكبر لمسألة التجديد فى الأدب والفن . . . علينا مثلاً أن نفهم كيف ينبغى أن نستخدم التراث الثقافى فى خلق ثقافة عربية جديدة خالية من المفاهيم الرجعية التى كرستها انظمة التجزئة وقادرة على ترجمة ما فى الحاضر من تحولات تاريخية واجتماعية واقتصادية .

إن تراث أية أُمة يجب أن يوظف لخدمة أهداف هذه الأمة فى التحرر والانعتاق فليس معنى إحياء التراث أو بالأحرى العودة إليه هو قبوله كما هو دون تمحيص وتدقيق ومعرفة الصالح منه والمدسوس .

وهكذا إذن يجب أن ترتبط قضية العودة الى التراث بقضية بناء الثقافة ولا نستطيع أن نفهم أهمية الربط بين القضيتين إلا إذا أدركنا مدى المحاولات التي يبذلها دعاة الإقليمية والتجزئة وأسيادهم الإستعماريون من أجل تكريس ثقافة رجعية إستهلاكية فارغة المحتوى تقوم على

تبرير سلطتهم القمعية التى لا يكبحها قانون .

لقد جرت محاولات كثيرة لفصل التراث العربى عن الثقافة العربية ناعتين أصحاب هذه الحملات التراث العربى بالضعف والجمود مشككين فى اعلام الفكر العربى ونوابغه حريصين على الإستهانة بكل ما حوته كتب التراث من قيم وخصوبة انسانية نادرة مما دفع بالكثيرين من المفكرين العرب المخلصين لتراثهم من مواجهة هذه الحملات التى امتدت لتشمل كل جوانب الفكر العربى قديماً وحديثاً . . .

وما أحرانا اليوم ونحن نخوض معاركنا المصيرية دفاعاً عن وجودنا الحضارى من أن نعود الى تراثنا ولكن بعد أن نعتمد فى احيائه على تاريخنا المجيد فهو وحده الذى يجعلنا نرى حقيقة انفسنا .

الفصل الثالث

كيف نواجه الغزو الثقافى

التحرر الاقتصادى
الثورة الثقافية

التحرر الاقتصادى

ولكن السؤال الذى يجب علينا أن نسأله هو كيف يمكننا مواجهة مظاهر الغزو الثقافى دون أن نتصدى لهذا النمط من الإنتاج الرأسمالى الذى يغزو أسواقنا ؟

ذلك أنه لا يمكن الفصل بين النضال من أجل التحرر الإقتصادى والخلاص من التبعية الإستعمارية وبين النضال الحضارى أى أن التبعية الإقتصادية التى نجمت فى الأصل عن الإستعمار المباشر هى التى تؤلف فى المجال الموضوعى الجسر الذى عبرت عليه الثقافات الإستعمارية ، غير انه ينبغى الإنتباه ونحن نتحدث عن الغزو الثقافى أن ندرك الفارق الأساسى بين الثقافة

الإنسانية التى تعبر عن الإتجاه العـام للحضـارة العـالمية وبين الثقافات الإستعمارية التى تعبر عن ذاتها بمجموعة من الإتجاهات السياسية والمواقف الفكرية التى لا تنسجم مع سياق العلاقة بين الإنسان فى المجتمع النامـى وبـين واقعه الإجتماعى بقدر انسجامها مع العقلية الإستعمارية والقيم الوجدانية وأنماط التعامل التى تولدت عن عهـود الإستعمار .

« الطريق الى التقدم »

إن هذا الفهم يقودنا الى اعتبار أهمية الصراع من أجل القضاء على التخلف الإقتصـادى استكمالاً للإستقـلال السياسى ذلك أن التخلف الإقتصــادى هو الأساس الموضوعى الذى يرتكز عليه الغزو الثقـافى والحقيقـة أن المجتمعات النامية هى التي تتعرض للغزو الثقافى وحدها من بين دول العالم فلم يحـدث ان سمعنا يوماً عن غزو ثقافى لهولندا أو بلجيكا أو أى دولة أوربية أقل تقدماً فى مجال التقنية عن الدول الكبرى ، أى أن التخلف بمعناه

الواضح والصريح هو عدم امتلاك العلم ، وهذا الأخير هو الذى يفرز الفروق المادية فى كل أوجه ونشاطات الحياة بمختلف مظاهرها بل ان تأثيره يتعدى ذلك لينصب على النواحى العقلية للأفراد والجماعات . فالفكر هو بالدرجة الأولى انعكاس للواقع ولما كان الواقع لا يمتلك أدوات العلم والصناعة والتقنية فإن الفكر بكامله عند ذلك يقع ضمن دائرة التخلف .

وإذا كنا نقرر هذه الحقيقة فلا ينبغى أن نفهم أنه بمقدورنا شراء العلم والتقنية ، فالتقنية كظاهرة علمية لا يمكن شراؤها بالمال ، انها ظاهرة مرتبطة بالتطور الحضارى الأوربى ولكن باستطاعة المجتمع العربى والمجتمعات النامية الوصول اليها من خلال خلق الظروف الموضوعية وذلك باستكمال مراحل التحرر الإقتصادى والقضاء على مظاهر التبعية الثقافية .

إن هذه القضية فى الحقيقة هامة ، بل هى احدى القضايا الأساسية التى تواجه كثيراً من البلدان النامية

فالـذين لا يعولـون أهمية على خطـط التنمية انمـا هم ينطلقون فى توجههم هذا من اعتقاد خاطىء وهـو انـه بإمكانهم نقل المدنية الأوروبية بكل ما أفرزته من صناعة وتقدم مادى بالثروات التـى يمتلكونهـا دون الحاجـة الى عبور مرحلة التحرر الإقتصادى والثقافى وهكذا تستمـر مجتمعاتهـم أسـيرة التخلف والتبعية دون القـدرة على الإنتفاع بثرواتهم الطائلة .

« إن الرأسمال الأكبر للإنماء هو الإنسان لا البتـرول فالإنسان هو الـذى يصنـع البتـرول وليس البتـرول هو الذى يصنع الإنسـان والإنسـان هو الـذى يثمـر الموارد البترولية تثميراً انتاجياً أو يهدرها هدراً استهلاكياً »[9] .

وهذا يجعـل القائلـين بنقـل ظاهـرة التكنولـوجيا من الغرب كأى متاع أو بضاعة يقعون فى مغالطـة صارخـة « لأنهم يتصورون أن التكنولوجيا ظاهرة يمـكن فصلهـا

(9) د . حسن صعب تحديث العقل الغربى ص :(9 / 10)

عن الحضارة التى تولدت هى عنها وولدت فيها هى بدورها مختلف معالمها الحاضرة »(10) .

« إننا وآباءنا وأبناءنا نستخدم أدوات الحضارة الحديثة واحدة بعد الأخرى ونصطنع آلات التقدم واحدة بعد الأخرى ولكننا لا نعرف بعد روح الحضارة الحديثة ولا نعرف بعد كيف نستخدم أهم آلة لها أعنى منهجيتها العلمية »(11) .

إن هذا فى الواقع هدف المخطط الامبريالى الرامى الى عرقلة حركة التقدم فى المجتمعات النامية بحيث لا ينصب الإهتمام على التنمية الإقتصادية والثقافية بل على استيراد البضائع الإستهلاكية وإهدار الثروة القومية وهى إعاقة كاملة تمارسها الإمبريالية العالمية ضد المصالح الحقيقية لشعوب العالم الثالث .

---

(10) مطاع صفدى التجربة الناصرية والنظرية الثالثة ص : (308)

(11) د . حسن صعب تحديث العقل العربى ص : (17)

يكفى أن نتذكر ان ظاهرة الإستهلاك التى هى إحدى سمات بلـدان العالـم الثالـث تعيق الى حد كبـير عملية التحرر الإقتصادى فهى فضلاً عن انها تستنـزف الثـروة القومية فى مجالات بعيدة عن التنمية التى تكون لصالـح الفرد والمجتمع تخلق فى الوقت نفسـه أهدافـاً إنحـرافية خطيرة وتفتح المجال واسعاً لظهور المزيد من الحاجـات الغير ضرورية ولـذلك « فقـد مال الإقتصـاديون نحـو النظر الى نظريات الإستهلاك على انها قليلة المساهمة فى تطوير عملهم »(12) .

وباختصار فإن التحرر الإقتصادى مطلب ضرورى إذ لا يمكن القضاء على التخلف الثقافى الذى يقودنا الى تقبل الثقافـات الإسـتعمارية بدون الوصـول الى التطـور الإقتصـادى والتخلص من التبعية الـرأسمالية للـدول الإستعمارية بكل مظاهرها .

---

(12) جون . س . كامبس المدخل الى علم الإقتصاد . ص : 62

وهـذا لن يتـم إلا بتحـويل النشـاط الاقتصـادى فى المجتمـع المتخلف الى نشـاط انتاجـى بعيداً عن النمـط الإستهلاكى المرتبـط بالعقلية الإستغـلالية التـى تسمـح بظهور تناقضات رهيبة فى بنية المجتمعات المتخلفة .

« إن النشاط الإقتصادى فى المجتمع الإشتراكى الجديد هو نشاط انتاجى من أجل اشباع الحاجات المادية وليس نشاطاً غير انتاجى أو نشاطاً يبحث عن الربح من أجـل الإدخار الزائد عن تلك الحاجات »(13) .

الثـورَة الثـقَافيَـة

لا نستطيع أن نقدر معنى الثـورة الثقـافية وأهميتهـا البالغة ومـا يلازمهـا من رفض لكل الثقافـات الـرجعية والبرجوازية إلا إذا تذكرنا وطأة ما يتراكم فى مجتمعاتنا من موروثات العهد الإستعمارى ودعائمه وما نتج عنـه من

(13) معمـر القـذافى الفصـل الثانـى من الكتـاب الأخضر . حل المشـكل الإقتصادى . ص : 24

اختلالات اجتماعية وثقافية واقتصادية .

إن هدف الثورة الثقافية في المقام الأول هو إعادة البناء الثقافى على العموم وبهذا الإعتبار فهى ليست موجهة الى فئة معينة من فئات المجتمع بل هى مدعوة الى التوجه الى كافة الفئات الإجتماعية على نحو أوسع بهدف اعادة تكوينها وترتيبها .

ولا شك أن الحديث عن الثورة الثقافية فى أى قطر يحاول السير فى الطريق الإشتراكى لا يخلو من الحديث عن الشباب وخاصة منهم الطلاب باعتبارهم قوة فاعلة ومؤثرة فى حركة المجتمع . . . إن هذا التداخل بين الشباب والثقافة هو ما يجعل الثورة الثقافية تعتمد فى اندفاعاتها الثورية على جماهير الشباب محاولة تعبئتها وخلق النضال الثورى بين صفوفها تحدوها نظرة ثورية فى أن هذا المجتمع الجديد لا يستطيع صنعه واعادة تغييره إلا الإنسان الذى يتولى بناء نفسه من جديد وفقاً لأصول ومبادىء الفكر الثورى الذى يستهدف بالدرجة الأولى

اقتلاع قواعد المجتمع الفاسدة بهدف اعادة صياغة العلاقات الإجتماعية من جديد والتأكيد على القواعد الخلقية السليمة والمبادىء النفسية التى تكفل للإنسان سعادته . . . .

إن الشباب فى بلدان العالم الثالث وفى الوطن العربى بالخصوص استطاع أخيراً أن يعى دوره كاملاً وأن يفرض تنظيماته النقابية التى تعبر عن أفكاره ومطالبه غير أن انخفاض المستوى الإقتصادى وبطء التحول من مرحلة التخلف الى مرحلة التقدم أوجد صعوبات على مدى أوسع خاصة فيما يتعلق بالثقافة والفكر . . .

فعلى صعيد المعرفة ظلت العلاقة بين كثير من فئات الشباب وحتى الطلائع منها وبين الثقافة الثورية علاقة وهمية لا تقوم على معرفة حقيقية للواقع فأصبحت كثير من الممارسات لا تعبر سوى عن وعى منحرف ولا تمثل سوى نظرة معكوسة ومقلوبة للواقع فإذا تابعنا هذه النظرة فإننا سنصل حتماً الى نتيجة وهى أن التطور المادى

عاجز فى هذا العصر عن حلق أية حضارة متكاملة الأبعاد اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً ما لم تتفق مع أهداف الإنسان المعاصر فى الوصول الى الحرية الكاملة التى بواسطتها يستطيع هذا الانسان توفير كافة حاجاته المجزأة والكاملة . . .

ذلك أن اكتشاف الأرض التى يحيا عليها الانسان هى من أصعب مهمات الثورة فى بلدان العالم الثالث ولما كان الأمر يتعلق بالشباب والثقافة فإن البعد عن هذا الواقع يعنى موت أُمة بكاملها وموت ثقافتها أيضاً .

إن الحديث عن مراحل التحول الثورى التى تشهدها بعض بلدان العالم الثالث اليوم هو الذى يفرض علينا بأن نؤكد أن هناك دوراً مهماً وبالغاً فى خطورته يتحتم أن يلعبه الشباب وخاصة الأكثر وعياً وتنظيماً فإذا كانت الثورة فى مرحلة التحرر الوطني تتطلب من كافة طبقات الشعب وفئاته أن تخوضها بصرف النظر عن أية تمييزات طبقية تمشياً مع طبيعة التناقض الرئيسي الذى يحكم هذه

المرحلة ـ إذا كان ذلك يحدث فى مرحلة الثورة الوطنية ـ فإن الثـورة فى مرحلتهـا الديمقـراطية الإشتـراكية وهـي المرحلة التى يتم بها تحول المجتمع ثورياً نحو الإشتراكية تصبح من الوضوح والحسم بحيث تتحـدد بهـا القـوى صاحبة المصلحـة الحقيقية بالثـورة والتـى تستـطيع هذه القوى فعلاً من الإستمرار فى عملية النضال لا لدوافـع مصلحية ذاتية بل لدوافـع اقتصـادية واجتماعية وسياسية تؤدى حتماً إحداث التقدم الإجتماعى والخروج من مراحل التخلف ، ذلك أن التخلف بصـورة عامـة والتخلف الثقافى بصورة خاصة قد حدث على وضع شعوب بإسرها فمن عادة المستعمر أن يأتى بدوافع خاصة به ومن خلال هذه الدوافع يخلـق عالماً جديداً يتناسـب مع شخصيتـه القومية ويتجاهل كل شيء فيما عدا ذلك ، ومن هنا ينبغى أن نفهم أن أسوأ صفة للإستعمار هى السيطرة الثقـافية فالإستعمار السياسى قد ينتهى فى مرحلة معينة أما السيطرة الثقافية فمستمرة لأن الشعوب المقهورة تجد نفسها منساقة

بكل قوة نحو حضارة الشعوب الأقوى معترفة بتفوقها على حضاراتها القديمة غير أن ذلك فى النهاية يؤدى الى صراع حضارى ونـزاع ثقـافى وهـذا يبـدو حتمياً بمجـرد تحـر ر الشعوب المقهورة من السيطرة الإستعمارية والوقوف على حقيقـة حضاراتهـا . إن الإسـتعمار والإمبـريالية يستخدمون ثقافتهم بما فيها من علم وأدب وفن وأخلاق لتبرير طبيعة نظامهم البرجوازى القائم على الإستغـلال البشع والإضطهـاد كما أن الفـكر البرجـوازى ما فتـىء يطرح مقولاته فى كافة الميادين الثقافية فى المسرح والسينما والموسيقى والرقص وفى الرواية والقصة والشعر وحتى فى العلـوم الإنسـانية كالتـاريخ والفلسفـة وعلـم النفس والإجتماع وعلى الرغم من تحرر فئات كثيرة من المثقفين من مفاهيم هذا الفكر إلا أن الصراع ما زال فى بدايته وقـد فطنـت البرجـوازية الغـربية لهـذا الصراع فعملـت على التـرويج لثقافـة برجـوازية جديدة تنسجـم على حد تصورها مع تقدم التكنولوجيا المضطـرد وبـذلك يحـاول

الفكر البرجوازى من جديد صياغة مقولاته التى سبق أن كرستها مرحلة التطور الرأسمالى فى عصر الإمبريالية فقد أدركت شعوب كثيرة أن العودة الى الأصل هى بمثابة تحرر ذاتى من كل خلفية استعمارية أو مؤثرات فُرضت بالعنف والإكراه فلم يعد للثقافة الغربية ذلك البريق الهائل وتلك الجاذبية التي يحاول المستعمرون من خلال تشدقهم بمظاهر الرقى والمدنية من أن يبسطوا نفوذهنا ويجعلوها كأهم البدائل الأساسية لقضية الثقافة القومية فى البلدان التى استعمروها فقد ارتبطت دوماً هذه الثقافة بمظاهر الإستلاب الإقتصادى والإجتماعى وبنظرة الإستعلاء التى هى من سمات المستعمرين كما ارتبطت أيضاً فى أذهان جماهير البلدان المستعمرة (بفتح العين) بأسلوب العنف والقهر وبحضارة القمع الأوربية والأمريكية ، والجماهير التى نقصدها هنا هى ليست بالطبع تلك الشرائح الإجتماعية الهجينة التى أفرزتها التبعية المطلقة للرأسمالية الإستعمارية فاغترفت من قشور الثقافة الغربية

البرجوازية والتى لا تتصل بقضايا الفكر قدر اتصالها بمسلكيات المستعمرين وأخلاقياتهم بل هى الجماهير العريضة من أبناء الطبقات الفقيرة التى أدركت بعد وعيها السياسى ونضجها الفكرى إن الإستلاب والغزو الثقافى هو الوجه الآخر المتمم للغزو الإستعمارى وإذا كانت الثقافة الوطنية فى بعض البلدان التى خضعت للنفوذ الإستعمارى قد ذبلت فإنها اليوم تسترد قوتها بعد تصاعد حركة التحرير الوطنى والديمقراطى فى بلدان العالم الثالث وفى هذه العودة الجديدة إنما تحاول أن تعتمد فى تواصلها واستمراريتها على مصادر أصيلة نابعة من صميم البيئة وليست مجرد عناصر غريبة أملتها ظروف التبعية .

« **العودة الى الأصالة** »

إن قضية العودة الى الأصل لفكر أية أمة هو العامل الأساسى القادر على خلق ثقافة متحررة فالمعروف أن لكل أمة من أمم العالم ثقافتها التى ارتبطت بروحها وبتاريخها

ولقد كانت الثقافة العربية الإسلامية نموذجاً حياً على ذلك فقد ارتبطت هذه الثقافة على مر العصور بتاريخ الأمة العربية وكانت قادرة دائماً على امتصاص كافة المضامين الحضارية ولكن دون أن يؤثر ذلك فى سماتها فقد ظلت ثقافة عربية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .

إن الثقافة التاريخية لأية أُمة هى وحدها القادرة على الدفاع عن نفسها ضد هجمات الثقافات الإستعمارية ومن هنا تحاول القوى الإستعمارية فرض أعنف صور للإغتراب الثقافى وهى إذ تقوم بذلك منذ أمد بعيد فإنها الآن تحاول استغلال عملية التقدم الإقتصادى ومنجزات التقدم العلمى التكنولوجى فى تمرير ثقافتها البرجوازية الجديدة التى تنسجم مع قوانين المجتمع الإستهلاكى . . . وهكذا فإن هذه الظاهرة الجديدة هى التى ستفرز العوامل الأساسية فى تفجير مختلف أنواع الثورات سواء فى الغرب الرأسمالى أم فى كافة بلدان العالم الثالث المحرومة من التقدم العلمى وهو السبب

الذى يفسر لنا تمرد قطاعات كبيرة من الشباب فى بلدان أوربا وأمريكا على مظاهر التناقض الصارخ الذى أوجدته الثورة التقنية . . .

« إن التقدم التكنيكى يتجه الى خلق عالم آلى مصطنع يناقض حاجات الإنسان الواقعية ورغباته العميقة وطبيعته نفسها وهكذا فإن الوفرة المادية إذ تحرر الأفراد من ضرورة العمل الدائب فى سبيل العيش قد لا تزيد على أن تسمح لهم بإدراك هذا التناقض إدراكاً أقوى والتألم منه تألماً عميقاً ولعل تزايد الأمراض العقلية وانبعاث بعض أشكال العنف وتكاثر الإضطرابات النفسية والقلق والخوف وفقدان الفرح الحقيقى بالحياة ، لعل كل ذلك أن يكون آفات لاصقة بالمجتمعات الحديثة »(14) . نعود ونقول أن الشباب وحده القادر على التمرد ذلك « إن الشباب يرى الجديد وإن عجز عن

---

(14) د . حسن صعب علم السياسة ص : (750)

تحديده ، ولكن الكهول لا يرونـه ولا يعرفـون تحـديده ولذلك يبدو الجديد عبـر انفجارهـم ناراً لاهبـة بدل أن يبزغ نوراً ساطعة »(15) .

« محنة الشباب والثورة الثقافية »

إن الشباب يعانون اليوم من محنة شديدة ولعـل هذه المحنة تبرز أكثر من غيرها فى مراحل التحـول الثـورى ولهذا فإن الثورة الثقافية القائمة على فهم كامل لطبيعـة المرحلة هى وحدها القادرة على تجنب هذه المحنة .

فالثورة الثقافية فى النهاية عملية تطور ذاتى وجماعـى وهى تشمل ميادين متعددة غير انها يجب أن تتفهم واقع الجماهير حتى تستطيع تعميم الثقافـة الثـورية وإنجـاز عملية التعلم التى ترافق التطور الإجتماعى وخلق تكوين تدريجـى لقيم خلقية جديدة وسلـوك جديد ذلك أن التحـول نحـو الإشتـراكية كنظـام اقتصـادى وسياسى

---

(15) د . حسن صعب ثورة الطلاب فى العالم ص : (20)

واجتماعى ، يتطلب مستوى معيناً من الثقافة الثورية يلغى كل ما خلفته وأفرزته الثقافة الرجعية والبرجوازية من خداع وتضليل على مدى عشرات السنين . . . .

فالثقافة كفكر ومعرفة يجب ألا تنفصل عما يحدث فى الواقع الموضوعى من تحولات لها أثرها البعيد فى كافة مجالات الحياة وهذه فى الحقيقة مهمة نضالية قائمة بذاتها ولها خصوصيتها فى النضال العام الذى يخوضه المجتمع .

إن ثقافة الماضى المتخلفة الرجعية عليها أن تخضع للمفاهيم الجديدة التى يفرزها المجتمع الإشتراكى الجديد بعد أن يكون قد ألغى تماماً النمو المنطقى للثقافة البرجوازية التى نشأت كإمتداد مباشر لسيطرة الطبقة الرأسمالية . . .

وهكذا تبدو مسألة خلق الثقافة الإشتراكية على غاية كبيرة من الأهمية . وإذا كان هناك من دور يتحتم أن يلعبه الشباب خاصة منهم المثقفين الثوريين فإنه دور

الترويج لهذه الثقافة الجديدة ، وإبراز محتواها الفلسفى والاجتماعى وعدم إيثار حياة العزلة والانطواء أو الميل الى الثرثرة فى الصالونات والمقاهى بعيداً عن هموم وقضايا الجماهير . . .

إن قضية الثقافة الثورية قضية جماهيرية فقد تسبق فى أحيان كثيرة عملية البناء الإشتراكى لأنها قد تتصل بعمق فى أشكال الوعى الاجتماعى الذى يعبر عن طموحات الإنسان فكم من كاتب وأديب ومثقف فضح الشعارات الرجعية والبرجوازية فى مجتمعه الذى يعيش فيه ، وكم من جماهير مقهورة أيقظها الأدب الثورى وألهب حماسها الفن الثورى فالثقافة الجماهيرية الثورية هى دائماً التى تمهد للثورة وتبشر بها وحينما تتفجر الثورة وترفع شعاراتها التقدمية على الشباب والمثقفين منهم بصورة خاصة أن يكونوا جيشها الذى لا يقهر .

الخلاصة

يمكننا أن نجمل القول بعد هذا كله بالنقاط التالية :

أولاً : إن عصوراً طويلة من التخلف والإستعمار قد ألمت بالوطن العربى والشعوب الإسلامية وبلدان العالم الثالث الأخرى وقد عملت هذه العصور على انقطاع هذه المجتمعات عن المشاركة الإيجابية فى تيار الحضارة الغربية الناشئة بمفهومها المعاصر ، صحيح أن هناك على مر التاريخ كان حواراً حضارياً بين الأمم ، بين الشرق والغرب ولكن هذا الحوار قد انقطع حين استطاع الغرب أن يضع حداً معيناً فى مفهوم الثقافة حيث نجح فى السيطرة على العالم الموضوعى الخارجى عن طريق آلته الصناعية التكنولوجية وكان ذلك إيذاناً بمولد حضارته

الأقوى المتفوقة على الحضارات الأخرى .

ثانياً : ان تفوق الغرب حضارياً هو الذى أدى الى النكبات التاريخية التى نتجرع مرارتها الآن وكان ذلك يعنى اننا أصبحنا نسير وفق منطق الإستعمار الغربى وما جرّه ذلك من تشويه وانحراف وتدمير لواقعنا السياسى والإقتصادى والثقافى . أى باختصار أن العوامل السلبية التى ولّدها الاستعمار فى مجتمعاتنا هى التى رسمت بالفعل منطق حركتنا الإجتماعية والثقافية فأصبحنا ذوى نظرة تجزيئية بعيدة عن الشمول ولعل أهم أهدافنا الآن هو تحويل هذا الموقف الإنفعالى والعاطفى للأمور الى موقف عقلانى وعلمى يعتمد على النظرة الشاملة التى ترى فينا أمة متكاملة حضارياً وغير قابلة للتجزئة . . .

ثالثاً : إن الغزو الثقافى الذى هو الوجه الآخر للإستعمار الغربى يعتبر محنة حقيقية نواجهها وعلينا أن نعمل جاهدين للوقوف فى وجه هذا الغزو باعتبار ان له

أعمق الأثر على مشكلة التقدم العربى فى مختلف الأقطار . . .

رابعاً : هل من المنطق الواقعى فصل هذا الغزو الثقافى عن سياق حركة الثورة العربية وعن أهدافها الأساسية فى التخلص من التبعية وبناء الدولة القومية . . .

إننا لا يمكن أن نقول أن قضية الغزو الثقافى يمكن أن نبطل فاعليتها بمعزل عن هذا السياق . ان الغزو الثقافى لا يمكن أن نواجهه إلا بوعى ثورى وفهم حقيقى لمرحلتنا الحاضرة ذلك أن هذه القضية مرتبطة ارتباطاً كلياً بمعاركنا المصيرية .

ويبقى أن نقول أن كل انتصاراتنا على التحديات المطروحة وخاصة التحدى الحضارى والثقافى منه بوجه الخصوص مرهون بقدرة الثورة العربية وبجماهيرها وارادتها فهى وحدها القادرة على صنع التقدم ومجابهة كل أنواع التحديات . . . !

مراجع البحث

1 ـ أنور الجندى ـ معالم الفكر العربي المعاصر مطبعة الرسالة القاهرة 1961

2 ـ مطاع صفدى التجربة الناصرية والنظرية الثالثة منشورات دار الحكيم بيروت 1973

3 ـ د . عمر فروخ ـ اللغة بين العامية والفصحى ، دار العودة بيروت 1971

4 ـ د . حسن صعب ـ علم السياسة ، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثالثة 1972

5 ـ د . حسن صعب ـ تحديث العقل العربى ، دار

العلم للملايين بيروت الطبعة الثانية 1972

6 ـ د . حسن صعب ـ ثورة الطلاب فى العالم ، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى 1968

7 ـ الفصل الثانى من الكتاب الأخضر حل المشكل الإقتصادى

8 ـ جون . س . كامبس . ـ المدخل الى علم الإقتصاد ترجمة الدكتور حميد القيسى ، دار التضامن بغداد 1964

الفهرس

ثمن بيع النسخة للمؤسسات

الرسمية 500 درهم

250 درهم داخل الجماهيرية

500 درهم خارج الجماهيرية